يعيش كثير من أنواع الحيوانات فى جماعات كبيرة كالبقر الوحشى، والقرود، والفيلة، والغزلان، والذئاب، وبعض الطيور والحشرات. والأغراض التى يسهل تحقيقها باجتماع الحيوان بأفراد من نوعه هى سهولة التزاوج واختيار الشريك وسهولة التعاون فى البحث عن الغذاء، والاشتراك فى الدفاع أو الهجوم وقت الخطر. وقد ساعدت هذه الأغراض على بقاء أنواع كثيرة من الحيوان. كما ساعد أيضًا على بقاء النوع وجود قائد للقطيع.

سلوك القيادة فى الحيوان

أ.د. مصطفى فايز

ومن المشاهد المألوفة فى كل قطيع من الحيوان، أو سرب من الطير، وجود قائد له أو أكثر يرشده فى حله وترحاله، وينأى به عن مواطن الخطر. ولا يشترط فى القائد أن يكون من الذكور الأقوياء؛ إذ كثيرًا ما يكون أنثى يقظة ماهرة، كما هو الحال فى الغزلان أو الفيلة.

أفعال وسلوكات محسوبة:

وإن من الممتع مشاهدة الجماعات المختلفة من الحيوان أثناء إقامتها وتنقلاتها وما يصدر عنها من أعمال تدل على الحيلة والحذر، ومن الجميل أن يتعلم منها الإنسان ويتفكر فى حكمة الخالق العظيم الذى خلقنا وخلقها. فالبط البرى مثلاً لا يحط فى مكان ليأكل ويشرب قبل أن يرسل إليه بضعة أفراد يقتصر عملها على الحراسة، فإذا ما أحست هذه بالخطر

لكل قطيع من الحيوان وسرب من الطيور قائد.. يرشده فى حله وترحاله.. وينأى به عن مواطن الخطر

صرخت صرخة عالية قام فى إثرها السرب دفعة واحدة محلقًا فى السماء مبتعدًا عما قد يصيبه من أذى.

وإذا أراد قطيع من الغزلان أن ينزل فى مرعى خصيب أوفد إليه فرقة صغيرة من الكشافة لتتجسسه فتحوم حوله بحذر، وتحلق فيما يحيط به من جهاته الأربع، وتشم رائحة الهواء والأرض لتتأكد من أنه ليس هناك حيوانات مفترسة مختبئة عن كثب منه. فإذا ما اطمأنت إلى المكان أقبل القطيع بأجمعه وأخذ يروى ظمأه، ويشبع جوعه تحت حراسة مستمرة من الكشافة. ثم ينقطع بعض الأفراد عن الغذاء ويعد نفسه للحراسة وتعفى الكشافة من عملها لتنال نصيبها من الطعام.

ولقطيع الفيلة نظام محكم تتبعه عندما تريد الشرب. ففى سكون الليل يخرج قائدها من الأدغال التى اتخذتها مخبأ لها، ويمشى نحو غدير الماء فى خفة وهدوء حتى لا يكاد يسمع دبيب أقدامه على الأرض، أو احتكاك جسمه بأوراق الأشجار، ثم يقترب من الماء، ويقف هناك مدة من الزمن رافعًا أذنيه ليلتقط أخفت الأصوات، ثم يعود من حيث أتى ويرجع مستصحبًا

معه خمسة من الفيلة، ويضع كلا منها فى مكان خاص للحراسة والمراقبة، ثم يعود ثانية إلى الأدغال ويجمع حوله القطيع، ويخرج به فى حذر وصمت، حتى يصل إلى الحراس وهناك يتركه ويمشى وحده نحو الماء ويقف بقربه مدة وجيزة منصتًا يقظًا حتى إذا اطمأن إلى سلامة المكان أعطى إشارة إلى القطيع فينزل فى الماء ويروى ظمأه ويرحل مسرعًا إلى الأدغال. وبعد ذلك يأتى دور الحراس فترد الماء فرادى، وكلما شرب أحدها عاد إلى مكانه فى الحراسة، وأخيرًا ينزل القائد إلى الماء ويأخذ نصيبه منه ثم يجمع الحراس ويلحق معهم بالقطيع.

وإذا وقع فى أثناء هذه المناورة حادث يثير الشك، كسقوط غصن من شجرة، أو اضطراب غير مألوف فى الماء لجأت الفيلة إلى الفرار، إلا أنها لا تنسى أن بينها صغارًا قد تزل أقدامها وتموت؛ ولهذا تحرص على وضع كل صغير منها بين فيلين كبيرين، يدفعانه بينهما أثناء فرار القطيع، ويحولان بينه وبين السقوط.

التعاون مع أنواع أخرى:

وتعيش الحمير الحمر المخططة (Zebra) فى قطعان كبيرة، ومن غريب أمرها أنها تأتلف مع جماعات النعام، وتشركها معها فى

لايخلو سلوك من سلوكيات جماعات الحيوان والطير، من أعمال تدل على الحيلة والحذر.. وتفادى المخاطر والوقوع فى شراك الموت أو الأسر

تجوالها، وربما كان الجامع بين هذين النوعين اتفاقهما فى سرعة الجرى عند وقوع الخطر.

والطيور فى هجرتها تسير فى جموع زاخرة لا يحصيها عد وعندما تقيم فى مكان معين كثيرًا ما يحلو لها أن تطير فى شكل أسراب صغيرة. وإن من أجمل المشاهد الطبيعية منظر سرب من الطيور وهو يحلق بأجنحته فى السماء. فسرب الزُرزور مثلاً يسير وراء قائده كأنه فرقة مدربة من الجند لا يشذ فرد منها عن النظام. فكلها تسير بسرعة واحدة، وترتفع ثم تنخفض بتوافق لا نشاز فيه. وتدور وتلف فى الفضاء دون أن يخرج أحدها عن مكانه بالنسبة للآخرين حتى ليتوهم الناظر أن السرب كله مسير بعقل واحد يصدر أمره فيتحرك الجميع حركات مؤتلفة منتظمة كأنه جسم واحد.

شتان بين الطائر والإنسان:

وإن الإنسان لتعلو وجهه حمرة الخجل إذا رأى سربًا من الطير، وتخيل بجانبه صورة جموع الآدميين التى تسير فى المواكب أو المظاهرات وغيرها، أو تحتشد أمام الأتوبيسات إذ يختل فيها النظام، ويسود الهرج، ويقع التدافع والتصادم، ويحاول كل فرد أن يتقدم على الآخرين أو يزيحهم عن أماكنهم ويصبح الحكم للقوة الجثمانية. وكثيرًا ما يقع من جراء ذلك حوادث مؤلمة.